

الإسلاميون والثورات العربية
تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة
الدوحة، 11 - 12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس


مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES
studies.aljazeera.net

قدمت هذه الورقة في ندوة "الإسلاميون والثورات العربية.. تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة" بالدوحة - 11 و 12 سبتمبر/ أيلول 2012

الإسلاميون وتحديات إدارة الدولة.. ابتلاءات مقارنة السلطان

الدكتور حسن الترابي

مفكر إسلامي ورئيس حزب المؤتمر الشعبي بالسودان

مراحل المسير مقارنة للسلطان



د. حسن الترابي

كل المذاهب الناشئة فالظاهرة فالناهضة في تاريخ حياة الإنسان هي في أطوار. يقع ابتلاء في حال جمود يثير تحدياً للساكنين فيها فتجاوبه منهم الاستجابة التي تقوم تصدياً وحركة، وقد تتلاحق تلك الأطوار مترتبة تقدماً في الحياة وقد يتسارع دفعها وتداخل. وتلك ظاهرة قد تتقارن أحوالها في شتى المجتمعات الإنسانية وقد تتمايز تجلياتها بين مجتمع ومجتمع لاختلاف الظروف، وقد تتماثل حركتها بين مجتمع سابق في نهضته المبادرة المتعسر جهدها ولاحق يعتبر به يتعظ فتتيسر سيرته.

ومبتدأ المراحل في قومة الإسلام المعاصرة هي صحوة بعد حال غفلة وانبعث حياة بعد موت واستثارة بعد ظهور تحد منافس. فبعد عهد من ذبول حمية الدين وحضور الإيمان بالله وبالغيب في شعاب من الحياة؛ بعدئذ قد تنشط مشاعر الدين وتعمر شعاب الإيمان حتى في الحياة العامة التي كانت

تغمرها الفتن بشهوات الهوي وتعلقات الدنيا المشهودة والمتاع المادي أو كانت تهيج فيها عصبية كالوطنية أو القومية مغالبة للغريب، ومن ثم تتفجر طاقات ودوافع إسلامية النزاع متعززة في إعلان الهوية الدينية. ففي السودان ومثله في بلاد عربية وإسلامية تاريخاً كان منبت القومة الإسلامية الحية هو بؤر التعليم النظامي الذي كانت تطغى فيه غاشية من الانفتان والإجلال للثقافة والحضارة الأوربية. وكان التراث الفقهي مزدهراً وتكاد تخلو مادته من هداية في الحياة العامة إلا متوثناً منقاداً في الأحكام السلطانية الساذجة للباحث الذي تحراها وراء الكتب المعهودة. والشعائر الدينية المسنونة كانت حيث تؤدي راتبة صوراً من حركة تعبد وأصواتاً من كلمات ذكر لا يفقه عامة الناس لها معنى ولا يجعلون لها أثراً في الحياة العامة، والتراث الصوفي كذلك كان نشاطه في خلاوي النجوى عكوفاً على المسابح وحلقات التذاكر وجماعته تواخي المؤمنين وتوقر في نفوسهم الولاء للشيوخ وذرياتهم ولكن لا تهديهم وراء الحياة الخاصة.

فالحركة الإسلامية ذهبت في مرحلتها التالية للنشوء تحيي الشعائر وتجتهد نظراً في فقه الدين الشامل للحياة الخاصة والعامة وتجديد أصوله بما يثريه. وكانت تتجاوز التقليد والمذهبية في الفقه والعقيدة والعصبية في الولاء للطرق الطائفية، وأخذت تنشر وتبشّر الدعوة للإسلام وفي ذلك تُحاور وتجادل الرؤى الغازية من مدّ الثقافة الأوربية اللادينية، وتدافع عن حق الدين الإسلامي شبهات أصابته لمقايسة على ماضي الدين الكنسي، وكان أفق ولائها الإنساني يتسع نحو كل بني الوطن فالقوم ووراءهم الأمة المسلمة وبنو الإنسان، لا ينحصر انجذابها نحو الغرب الموقر وحده المتعالي مثاله. وبسطت الحركة دفع تنوير للظلمات التي غمت مجتمعات المسلمين وخيمت على ثقافتهم، فكانت تحرر وتنشر الرسائل والكتب في هدي الدين ومقتضاه الحاضر في كل شعاب الحياة وبيان رشد في كل واقعاتها. وكانت تتسع اطلاقاً فترجع إلى أصول الدين والقرآن لا تلاوة لفظية وحسب بل تدبراً للمعاني والمغازي وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم لا حفظاً لنصوص بل تفهوماً لمثال حياته. وأخذت الحركة تتسع كذلك في مد ولائها في المجتمع، تخاطب النساء ولا تقتصر على الرجال الذين كان يُظن لهم قديماً حكر الفقه والدين وفضل الجهد الفعال



الإسلاميون والثورات العربية

تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة

الدوحة، 11 - 12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس

في أيما حركة للتغيير والتجديد. ومضت تمتد أيضًا بعد أن انحصرت عضويتها في صفوفه الخارجين من المدارس والمنتمين للمهن الحديثة فتخاطب وتؤلف عامة الناس من المسلمين بل من أبناء الوطن الإفريقي الآخرين. ودعوتها لم تعد دفاعية عن حجة الدين وحق تعاليمه ولا قاصرة لهم على توبة حياة السياسة والسلطان إلى الدين بعد فسوقها عنه عهدًا طويلًا بل رجعة أيضًا إلى هداية الدين في المعاش والمال ومعاملات المجتمع الخيرية والفنية والرياضية التي تناعت عن الدين نية وأداءً. وتنزلت الدعوة الخطابية إلى العمل الواقع مثلًا هادية من منظمات ومؤسسات في كل تلك المجالات من الحياة.

ثم توجهت الحركة الإسلامية في نهضة سياسية مضادة لواقع السلطان، لأن سلطته في الحياة الحاضرة عمّت شعابها كافة بأوسع مما تولاه ولاة حكم المسلمين قديمًا. وقد اضطرت الحركة في بلاد مسلمة إصعاد الجهاد الجدالي إلى القتالي المتطاوّل مقاومة لما يُسبّط عليها من العدوان، وتهدى لها أحيانًا التحالف مع قوى أخرى في عالم السياسة وفي المجتمع لتعبئ ثورة من كل جهود الرعية تحيط بالسلطان وتغلبه مهما جهد ليؤمن قواعد سلطانه ويحفظ سيادة أهوائه وحفظ مكاسبه وجاهه في الطغيان، وأحيانًا انفسح لبعض الحركات مجال حرية المجادلة والمنافسة العادلة في ابتغاء السلطة ولو باسم الديمقراطية الأوروبية فلقبت الحركة طمأنينة في أن يعمل كلٌّ على شاكلته وفي مكانه ليروا لمن تكون عاقبة الأمر كما روى القرآن في النهج الحق في دعوة الرسل لقومهم قديمًا وأوصى به الدعاة المسلمون. لئن اختلفت ظروف شتى البلاد بين القومة المجاهدة والثورة الجائعة والمغالبة السياسية سلمًا فقد قضت ظروف حركة الإسلام في السودان أن تسلك طريقًا آخر ما هو مثل سنة النبي صلى الله عليه وسلم في تمكّنه في سلطان المدينة. ذلك أنها كانت تتعرض مثل سائر الحركات لدورات من الكبت والاضطهاد لكنها بلغت في مثاقيل السلطة ما أفزع منها الطغاة الحكام المفتونين بالسلطة واحتكارها ومن ورائهم القوى الأوروبية - التي تقدّر الديمقراطية قيمة فاضلة ومنهجًا مرضيًا للتنافس علي الحكم كيفما كانت عاقبته لكنها كانت أشد انفعالاً بتراث كره الإسلام دينًا، وتوالي الحروب الصليبية لصدّه وقهره، والاحتلالات الاستعمارية لاستضعافه وتسخير المسلمين لأهوائهم - فكانوا لا يرضون بإجراء ديمقراطي قد يُعقب ظهور إرادة إسلامية عزيزة في السلطان يضطرب بها رجحان المصالح والقوى الذي يحبون. ولذلك تعرضت الحركة في السودان لا لغضبة حاكم من الوطن وحسب بل لتحريض مباشر من تلك القوى للحاكم أو جنده في لزوم أخذ الحركة الإسلامية أخذًا بالقوة التي تصدّها وتردها أو تستأصلها؛ ذلك لاسيما أن الحركة الإسلامية في السودان مثل سائر أخواتها كانت قد مدت حبال وصلها الخارجي عبر كل القارات لاسيما الإفريقية، وحسب كبار العالم أن ذلك اتساع عظيم الخطر على سعة نفوذهم. ولعل الحركة قد استوتحت عبرة تجارب الإصلاح الثورية في أوروبا بأن العهد القديم للطغيان لا يتراجع بالحسنى درجًا رقيقًا بل بالقوة الأخذة القارعة. وكذلك قامت الحركة الإسلامية بانقلاب كان مجهول الوجه لأول عهده إلا ظاهر حملة عسكرية، لأن جند النظام الذي كان قائمًا حدّروه من فتح مجال للمشاركة الائتلافية في الحكم لمثل تلك الحركة وأنذروه بأنهم سيباشرون هم صدها بتولي السلطة إن لم يفعل ذلك رئيس وزراء مؤتلف مع الحركة في حكمه، فاضطر لإخراجها دون داعي خلاف معها ليأمن هو في مكانته سيدًا ما معه إلا ثان في سواد المجتمع السوداني الطائفي بتاريخ ولانه.

والحركة الإسلامية في السودان وقد اتسعت عضويتها في المجتمع لتجمع ما يمثل كل شعبه وفي الوطن عبر كل شعوبه، ووسعت أهداف دعوتها كل هموم الحياة خاصها وعامها، واتخذت كل أسباب بلوغ السلطان دعوة ومنافسة في سلام ومباغته بقوة للتمكن في السلطان دون صدام، كانت قد مدت أيضًا حبال صلاتها بالحركات الإسلامية بل بكل قوى الإسلام في الأرض وكانت أيضًا تمد نظرها حركة سياراة وترسم خطنها لسنوات لأنها بديتها تتوجه إلى الآخرة،



الإسلاميون والثورات العربية

تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة

العدد: 11 - 12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس

وما كان التخطيط معهودًا في مثيلاتها الإسلامية. وما كانت تتجدد بخطتها المتقدمة وسائل حركتها ونظام بنائها وحسب بل كانت تتجدد باسمها وقياداتها وألويات أهدافها في كل طور وحين وفاق تقلّب نظم السودان وظروف حياته العامة. فقد كانت لأول عهدها السري هي حركة التحرر الإسلامي يسري مدها بين طلاب العلم قبل الاستقلال مجابهة لحركة التحرر الوطني الشيوعية، ثم خرج قادة منها من عهد التعليم واتخذوا اسم الإخوان المسلمين تعاطفًا مع الذين حملوا ذلك الاسم في مصر إذ تعرضوا حينئذ لفتنة أريد بها أن يقضى عليهم فأراد إخوانهم في السودان أن يحفظوا ذلك الاسم عاليًا وما يعنيه حيًا. ثم مرّ السودان بعهد عسكري كان كابتًا لكل القوى السياسية فخرجت الحركة بعد سقوطه باسم الميثاق الإسلامي بكتاب عهد فيه هداية الحياة كلها للإسلام اتخذه أساسًا لجمع من التيارات الدينية سلفيتها وصوفيتها والمتقين منها. وبعد سنوات كُبتت الحركة ومن معها بوطأة أشد لحكم يساري عسكري فتجاوزته بسقوطه بعد سنين وأقامت جبهة إسلامية قومية أسسها الرجال والنساء من كل قوم الوطن أبناء من الشمال والجنوب وسائر أنحاء السودان، وتآلفت فيها عناصر من الصفوة المتعلمة وأفواج من العوام. ولما قامت حركة الإنقاذ العسكرية اتخذت الحركة الإسلامية اسم المؤتمر الوطني، مستغنية عن ذكر الإسلام في عنوانها لتسع المواطن غير المسلم وغير الناشئ في سياق التيار الإسلامي. ثم تطورت باسم المؤتمر الشعبي حين فاصلت من فتنه السلطان وضلت سيرته وعادت هي إلى قاعدة الشعب وجمهوره مبتلاة معوّقة في حرية المسير كشأنها القديم. وتلك الأيام يداولها الله بين الناس بين يسر وعسر وعزة ومسكنة وقوة واستضعاف.

الحركة بعد التمكن وميزان السلطة للراعي والحرية للرعية

إن مسلك أيما منظومة كانت مبتلاة في حرّيتها لكنها بلغت هي موقع السلطان أن مسلكتها وفّ على المبادئ التي هدّت مسيرتها وكانت مؤمنة بمقتضاها فعلاً صادقاً بعد قوله دعوة وشعاراً؛ فطبيعة الحركة الإسلامية في السودان أنها لم تكن تنظيمًا عليه مشيخية فلم يكن أمرها كله موكولاً لكبيرها، فمثل تلك التنظيمات حين تتولى السلطة نكل كل الأمر العام إلى رأسها ومن حوله، وإنما كانت الحركة ناشئة في جبل عمرهم وعلمهم وكسبهم كلهم سواء؛ فالتزمت هي فعلاً بنهج الشورى في تسيير أمرها يُنتخب القادة جملة وتُتخذ القرارات في شورى مجالسها، وأعضاؤها كلهم يستون ذكورهم وإنائهم قدامى العهد والمحدثون. ولكن السرية كانت عُرْفًا لازمًا منشأ الحركة إذ عاصر ذلك ابتلاءات في كل أرض المسلمين للحركات الإسلامية الناهضة. وتلك السرية كانت تقصر مدى الشورى وتُفقد جودها لأن القرارات والخطط يُستسر بها غالبًا وحيثياتها تظل مكتومة عن القواعد يلتزمون بأمرها لأنها من مصادر موثوقة يأمنونها ويفوضون لها ما هو أوفق وأحكم من تقدير وتقدير. وكانت تلك علة بدت عورتها في مجال السلطان.

ثم إن مصطلح الحرية لم يكن مألوفًا في أدب المصادر الثقافية القديمة للإسلام إلا ضدًا للعبودية والرق. والحق أن القرآن يقرر أصلها في طبع الله للإنسان ليكون في خيار عند الرأي والعمل حينما توجه، وتواترت الدعوة للخيار الحر للمخاطبة في كل رسالات المرسلين وتكثّف الذكر لأصلها في القرآن في كل علاقات المؤمنين دعوة أو تزواجًا أو



الإسلاميون والثورات العربية

تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة

العدد: 11 - 12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس

تعاملاً في التجارة أو تعاهداً في السياسة والحكم، لا إكراه في الدين ولا إجبار في أيما علاقة بل هي كلها تجري عن رضى ومعاقدة يكون الوفاء بمقتضاها فرضاً بل القرآن لا يسميها حرية انطلاقاً من القيد وحسب بل تكليفاً أن يمارس المؤمن التعبير الصادق عن إرادته والإمضاء الحر لمشيئته دون جبر أو عدوان أو إضرار للآخر.

ولذلك يحسب كثيرون أن كلمة الحريات العامة، ليست واردة إلا من الغرب بغير أصل في الإسلام، وأن عبارة "الحقوق الأساسية" هي أيضاً مستوردة من فكر أهل الغرب وكسب تجاربهم. والحق أن الحقوق معروفة في الإسلام لكن يُعزّز وقوعها أنها تُمارس واجبات تكليف أن يسعى المؤمن لحفظ حقه ويمارسه واجباً عليه ليتكافأ وقع الحقوق والواجبات كلٌّ يتمتع بحرمة وبحماه ويدفع عنه، ويتيح للآخر ذلك دون عدوان وكلٌّ يباشر حقه في التعبير ويُناصح الآخر مع حفظه لحقه وتخيير الآخر، وكلٌّ يعاهد الآخر ويبيعه مراضة لكلِّ حقه وعلى كلِّ واجبه بميزان في إحقاق حقه والفسح لحقوق الآخرين. وإذا كان سابق عهد المسلمين مرهوناً بأثقال من كبت حرية الاعتقاد والاجتهاد للمؤمن والتعامل كرهاً مع السلطان فقد غشي ثقافة المجتمع المسلم ومحمول تقاليد العرفية الفقهية ما دعاهم لإيصال كل أمر الجماعة العام وشأنه والملا لمن يتولى الرئاسة العليا: شيخ الطريقة أو إمام الجماعة السلفية أو مفتي المذهب الفقهي أو أمير العصبة الجهادية.. إلخ. وكذلك كانت ولاية أمر الأسرة والأهل والقبيلة هي للأب والشيخ والكبير.

وفضلاً عن ذلك كانت المعارضة السياسية لقيام الحكم الإسلامي هكذا انقلاباً، كانت تتعبأ وتستتصر بأيما قوة في العالم تؤويها ملجأ أو تمدّها بأسباب الحركة والإعلام. وذلك مما دعا الحريصين على ثبات أمن النظام الإسلامي إلى العدوان على المعارضة بالمثل سيئة بسينة، تُحتكر دونهم الإذاعة والصحافة وتُتخذ لنشر دعوة الإسلام ودعاية نظامه المحاط بها من الغرب الذي يكيد لقيامه، وتُحاصر المعارضة وتُحظر الأحزاب والمنظمات غير الحزب الداعي لله وجماعات الدعوة والخير الديني.

ومن ثمّ ظهر الخلاف بين أهل الحركة الإسلامية الأصليين المخلصين لمقتضي هدي الدين: أن يُترك الناس في خيار وحرية ويُتسامح معهم ويُجادلون بالحسني مهما يكونوا ولو دعاة للكفر أو حزباً للشيطان وحيثما طعنوا بأقوالهم في الدين وفي رجاله، ذلك مثل سُنّة المدينة وسماحة قائدها الرسول صلى الله عليه وسلم ووصايا القرآن الصريحة. وقد تأخر إفساح المجال للصحافة وجرّت محاولة قانونية لإطلاقها ولكن في واقع السلطة ظلت مرهونة لضبط ورقابة من ولاية السلطان الغيورين علي أمنة الحياة -كما يدعون- للإسلام. وكذلك الأحزاب أذن لها بعد حين لكن حُوصرت أن تجاهر في الندوات بمواقفها المعارضة. وحرّمات الإنسان وخصوصيته كذلك كانت تنتهك مخالفة لنهي الدين بنص القرآن عن التجسس وظن السوء وتقارير الغيبة. بل ظل الاعتقال السياسي يطول الناس دون تهمة جنائية يُتحرى عنها والقضاء الاستثنائي الذي يدين ويعاقب بلا بينة، وأبيحت مصادرة المكتسبات دون ملجأ لقضاء عادل ومحاكمات متجردة للحق، وقد ظل ذلك سياسة متبعة أصابت سمعة حكم الإسلام بسوء في رأي السودان العام بل في العالم.

وكذلك لم يُراعَ مبدأ المساواة بين الناس. والحركة كانت هي قد عرفت أن الناس سواء لا يتميرون إلا بالأهلية وبالكسب والجهد والتخلُّق الحسن وعند الله بالقوى. ولكن ظلت روح العصبية العرقية في ولاية السلطة تبدو مظاهرها في لَيِّ عدالة الحكم وتولية مناصبه والتصرف في أمواله، لا تمضي الولاية بميزان الأهلية والأولوية الأحق ولا يُوزَع المال بالقسط. وذلك أحد رد فعل المجتمع فاشتدت فيه العصبية المضادة لدى المظلومين أيضاً، وتميزت بالمجتمع



الإسلاميون والثورات العربية

تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة

العدد، 11 - 12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس

العصبيات وأُخِلَّت بوحده القبلية والنزعة الإقليمية. والحركة قد استدركت قديمًا في طبيعة بنائها وفي دعوة إصلاح المجتمع ظلم المرأة لتردّ المؤمنين إلى هدي العدل والتراضي والتشاور في الزواج والأسرة والفرص المتكافئة في ولاية الوظيفة العامة. وقد نشطت الحركة برسائل دعوتها وبمثال مسلكها هي في تحرير المرأة من جاهلية الظلم الضالّة عن عدل الإسلام وحقه، بل اجتهدت في أن تحملها بعد التحرير علي التكليف بأن تشارك في كل شعاب الحياة تكاملاً ومساواة بين الرجال والنساء كما فضّل الله بعضهم علي بعض في أعضاء الخلق وفي الطبع لكن ساواهم في أصل الدين والتكليف والحقوق إلا توزيعاً متكافئاً حسب تفاضلهم، وفي الجزاء والمصير أيضاً. مهما يكن ذلك من كسب الحركة، وكان حماية من أن يأتي تحرير المرأة بدفع ثقافة أوربية تُفسد موازين الأسرة والخلق في مجتمع المسلمين. مهما يكن ذلك فإن السلطات إن ساوت الذكور والإناث في التعليم ما ساوتهم في الوظائف والمناصب العليا وفي بعض أحكام نظام أمن المجتمع الجائرة.

وكذلك في نظام الحكم فإن الحركة الإسلامية في السودان كانت مستقيمة ملتزمة في حياة قيادتها وسيرة حركتها بالشورى ونظام الانتخاب الصادق للقيادات، وبسط الشورى لتتغلغل الأصدقاء الأدنى في الولاية، وتتجلى نحو تمام القرار في الأعلى. لكن ميراث المسلمين في الأحكام السلطانية ليس إلا فقيراً وكان منسياً في أحكام السياسة السلطانية وخلقها ومجاهدة ابتلاءاتها وفتنها، وكان ذلك مغفولاً عنه حتى في منهج الصوفية التي تدّعي تزكية النفوس. وميراث النهج الأوربي في الحكم والإدارة كان يطغى بمصطلحاته ورُوحه في ساحة السلطان ودواوينه ولغته كلها. ورشد الإسلام بأن تتكامل المشاعر الدينية في النفس الإنسانية لترقية الحياة وضبطها ما كان كله حاضراً في وعي المجتمع السياسي لتعمر أصول الخلق دوافع وضوابط في وجدان كل فرد، وما نشطت مع ذلك آثار المعروف والمنكر الذي يتواضع عليه المجتمع موصياً بالحسنى محرضاً عليها ناهياً عن الظلم والعدوان والخطاب لانما على ذلك، وما تكامل ذلك في تناسق مع أحكام القانون الصادرة من السلطان لتحيط بما هو نافع في ظاهر علاقات الحياة وعمومها من واجبات كفائية واتقاء للمضار والمحظورات الجنائية، وبيان التنظيمات التشاركية في تعاون الناس والترتيب الصالحة لإدارة السلطة. وفي هدي الإسلام التعويل في صلاح الحياة ليس بغالب على السلطان قانوناً بل على المجتمع والوجدان عُرفاً وخلقاً. ولكن إذا لم يصلح وجدان الناس أفراداً ولم تحسن أخلاقهم مجتمعاً فإن تكليف الاستدراك يصبح ثقله على السلطة ويدها الأمرة القاهرة.

وذلك القصور في إصلاح النفوس والمجتمع هو ما جعل حظ السلطان في حكم الحركة الإسلامية ثقيلاً في أبنائه ووظائفه وجعل دوره أعظم، تتكاثر المناصب في ولاية السلطة ويتعاضم الإنفاق العام من واردات الحمل على الناس بالضرائب وتكاليف الخدمات العامة المؤداة لهم. وهكذا أصبحت عضوية المجالس التشريعية تتضخم، وتتفرع الوزارات وتتكثف فروعها التنفيذية وتتكاثر بأسمائها بقليل فعل منها، وتتكاثر أيضاً المؤسسات الاستثمارية والتجارية التابعة للسلطان، كأن المذهب العام للحكم أصبح اشتراكياً متطرفاً، القطاع العام فيه يحتكر الاقتصاد والخدمات. وهدي الدين يُوحي لخواص الناس وجماعتهم بالضرب في الأرض، والكسب والإنتاج عبادة لله، وكذلك التجارة والمشاركة والدين بينهم تعامللاً بخلق الدين وأمانته. وتجربة الإنسان في العالم كله جنحت الآن إلى ما يصدّق ذلك الهدي من بسط حرية للقطاع الخاص في العمل والمعاملة وغلبة دوره في الاقتصاد إلا ما يستلزم عملاً لحفظ صالح عام لا يثمر ربحاً عاجلاً يُغري الخواص بأدائه.

وكل هوادي الدين وأخلاقه المالية مما حاولت أن تتزكى به الحركة الإسلامية ابتداءً لمصارف المال الإسلامية التي تجمع مذكراته وتمدها ديوناً بأجال ومضاربات ومشاركات لخير الجميع، ولمنظمات التأمين التكافلي التي تؤمن



الإسلاميون والثورات العربية

تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة

العدد: 11 - 12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس

حاجات الناس عند الأزمات وتردّ إليهم الأرباح من ذلك الحساب إلا ما تنفقه على الإدارة. وحاولت الحركة أن تدفع عناصر منها للتجارة والخدمة العامة الطوعية ليبسطوا الأمانة ويتحروا الكسب المبارك لمقابلة تكاليف المعاش الطيب وينشروا الإنفاق الخيري صدقة ووفقاً كما عمرت به حياة المسلمين وحضارتهم قديماً.

لكن المؤسسات المالية لاسيما الرسمية ولو حفظت اسمها إسلامياً جنحت بها فتنة الطمع إلى الحيل حتى أكل الربا تداعى لإباحته متفقهون متعلمون يتلقون أجراً ليجيزوه بحيلة الضرورة التي تفتح أبوابه مطلقاً. وفي المؤسسات الرسمية العاملة للربح ضعف الأداء وتعاضم الفساد وكذلك تضاعفت الأمانة حتى في المعاملات بين خصوص المتعاملين بالمال. وأكل المال الحرام باستغلال السلطة كثرت الدواعي له بين غالب من تولى منصباً رسمياً ومن تعامل معه فالرواتب غير كافية وفرص الاغتنام بالفساد واسعة، بل أصبحت عورته مفضوحة لا يستر الفاسد كسبه الحرام بل يتناول في البنيان ويسرف في ظاهر المتاع. وأصبح السودان في ذيل قائمة الطهر في ولاية السلطة ورأس قائمة الفساد. وأخذ الأوروبيون يذكرون المسلمين بعظّة فساد رجال الدين وإفسادهم للولاة في تاريخهم ويحملون على أصل دين الإسلام ذلك الاعتلال الذي يغشى واقعه. وتكاثف الحرام في المال والضلال والفتور في الكسب فما تبارك للسودان الخير نماء ورقيّاً في المعاش، ولا العدل في كفاية الناس الاجتماعية بل ظهر فيه الظلم المحيط.

ودفعت الحركة الإسلامية حملة في بسط التعليم وهمّت بتعريب لغته التي كانت في مستوياته العليا إنجليزية، وفي ذلك لم يجد السودان شقيقاً يعاونه إلا سوريا. وقامت الحركة بجهدا الخاص لتعريب لسان أهل السودان كافة إذ كانوا عهد استقلالهم لا ينطق أكثرهم عربياً، ولكن بعد الإنقاذ امتدت العربية لساناً شمالاً وشرقاً وغرباً بل عمّت حتى الجنوب الذي كان غالبه أعجمياً برطانات قبلية شتي. بل امتدت جهود الحركة خارج السودان في جواره تنشر العربية لتبلغ الناس ما تحمله من رسالة الإسلام بمنظمات دعوة لغير المسلم وإغاثة للمحتاج لم يعهد العالم الإسلامي مثله. ولكن سياسة التعليم الرسمية بسطته بسطاً وكماً ولم تحفظ له كيفاً، وساء حال الطلاب وتكاثر الخريجون لكن لا تفتتح لهم فرص العمل الحر أو الاستخدام فأخذ أغلبهم الآن ينجح للخروج من السودان وظروفه الطارئة سياسياً ومعاشياً. والتعليم الخاص أصبح متسعاً لكن روح التجارة غلبت فيه لا ينشد أولاً ترقية علم الصغار وتزكية أخلاقهم وحسن تربيتهم. والعلم فرض في الدين على المرء لكنه اليوم لا يُتاح سواء للناس فغالبيتهم محروم من فرصه، أما البحث العلمي لرقى المعلوم فلا يكاد يتيسر لمعلم أن يجد مجالاً يفرغ فيه لذلك بل أصبح المعلم فقيراً يبيع الدروس معاوضة خاسرة.

وكذلك بين سائر وظائف حياة المجتمع همّت الحركة الإسلامية أن تتوب أيضاً بكل ضروب الفن الذي كان لهواً في ضلال إلى نيات العبادة والدين ودوافعه ليترقى بها وتقواه لينضبط بها، وحاولت تجاوز الإنشاد الديني القديم بألته من الدف وحسب ومعانيه القاصرة المكرورة. لكن ذلك لم يفلح وسلك غالب الفن مسالك لا يُرى منها مثل راقية إلا قليلاً، بل الكسب واللهو العاجل هو الدافع وحسب، ولا يُقرأ للحركة رسالة عن الدين والفن. وكذلك الرياضة حاولت الحركة أن تعمرها بروح الدين وخلقه بكل وجوه وقعها، ولكن من في السلطة تولوا التحكم في قيادتها ولم يتركوا لها تقدماً طوعاً ولا خلقاً رياضياً يسري في حياة الناس، وأرادت أن تظهر بها عزة في منافسات العالم ولكن لم يبلغ السودان فيها مبلغاً ذا بال.

أما الإعلام فقد احتكرت السلطة غالب الصحف وسيطرت علي باقيها رقابة وإغراء وترهيباً، وأحاطت حكراً بالإذاعة المسموعة والمرئية ولم يبق لحرية الإبداع في الإعلام مجال إلا للوارد علينا من الخارج الرشيد منه والمتنقّس والغني



الإسلاميون والثورات العربية

تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة

العدد: 11 - 12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس

والتافه، فأصبح إعلامنا بلا حرية نتلقى من العالم ما يبلغنا ولا نسهم فيه نحن بشيء يُذكر وقد عُمِر الاتصال اليوم عبر الأرض، وكثير من الراغبين في العمل الإعلامي أصبح يسبح في الفضاء أو خارج السودان ولو حظي بمددٍ من الحاملين على وطنه ظلمًا.

وطبَع المجتمع السوداني لا يسلم بدواة رعوية للبهائم إلا قليلاً من كثافة الزرع على النيل، أو أن يخرج العامل مغترباً في بيئة هو فيها خادم فعّال بأجر. وما استطاعت الحركة بآثر الصلاة في جماعة ووصايا الأخوة وانتظام الإمارة في تنظيمها- ما استطاعت أن تغير ما بنفوس أهلها ليتغير حالهم وتسري فيهم روح الفريق والجماعة انتظامًا وفاعلية ذات وقع.

وكذلك الخدمة العامة في دواوين الحكم كانت تَبَشِّر بخير قديمًا لكن أصابها اعتلال بسوء سياسة الترخيم والترقية ميلاً بعصبية محسوبية وتحيزات سياسية تغفل عن الكفاءة. وقد خرج قاداتها لإغراء في بلاد مجاورة فضاع المثال والتدريب، والقيادة السياسية شغلها الفساد عن إحسان ضبط الديون في الخدمة العامة، وأخرج كثيرون من الخدمة ظلمًا وأصبح همّ كل مفصول معارض يطالب تسوية الحساب وتطهير المحظوظين دونه ظلمًا.

والمجتمع السوداني لا يُحسن أداء صلاة الجماعة متزكياً بروحها صفًا ونظمًا بل هو -فيما سوى العشيرة والقبيلة- لا يسعى للمشاركة والتعاون في جماعة للكسب أو فعل الصالح والخير؛ فالشركات المدعاة ليست بغالبًا إلا قاصرة على عائلة أو قلة ولا تتحلف بالمباراة والوفاء عهدًا بل يكثر فيها الفساد والحظ فيها لمن كسب، والسودانيون قاصرون عن حفظ تعاون الجماعة. وحتى الأحزاب السياسية أصبحت إذا لم تجمعها مائدة السلطة تنزع للتشقق والخلاف ويتكاثرون زمرًا متناكرة لا تكاد تمايزهم أو تُولف بينهم المناهج في خيارات متميزة بل الولاءات العمياء للتاريخ كانت تجمع أكثرهم، ولكن السواد الأعظم من الجمهور أصبح اليوم في شتات يسدُر في الحياة العامة مستقلاً عن كل ولاء أو متجمعًا كل حين في عصبية لا تحيا طويلاً. وبالطبع كبت الحريات السياسية عوّق قيام الأحزاب التي تقوم على وفاق في المنهج وتوحد بالشورى وتنافس عادل علي ولاية السلطة، وقد امتلأت الساحة بتشكيلات سياسية عرضية لا يخشاها المستبدون بالسلطة بل يسترضون عناصرها بمغانم ولاية ترهّنهم ولاءً لأولئك المستبدين نفاقًا في رغبة ورهبة.

والقضاء السوداني مصادر العلم فيه من السودان والخارج بعضها موصول بالشريعة الإسلامية، وآخر مرجعه الفقه العرفي الإنجليزي، وآخر عربي المصدر لكن من أصول الفقه الأوربي. وقد بادرت دولة الإسلام لأول الأمر بتوحيد القضاء دون ممايزة بين الشرعي والمدني، كما فعلت بمعاهد التدريس دون تمايز بين الديني والآخر، وكما أرادت أن تفعل كذلك بكل نظم الحياة فلا يشدّ بعضها باسم الإسلام بل كلّ يتوحد ويتسق. وكان لأهل القانون في السودان لكثرة مصادر علمهم أن يبلغوا قدرًا عليًا في العلم في فقه القانون والقضاء والعدل، ولكن اعتلال دواوين السلطة ومعاهد العلم أضرّ بذلك الرجاء، إذ تعسرّ المعاش وتدهورت قوة العملة الشرائية لمن يعمل في الخدمة العامة فلا يسلم مجال فيها من الفساد أو الفرار والهجرة من السودان.

والسودان مجتمع فيه أخلاط من العروق والشعوب ولكنه أصبح عرضة اليوم للهجرة الخارجة منه كسبًا للمال وعملاً في مهنة والهجرة الداخلة إليه من الأعراب الذين جذبهم إليه شرقًا وغربًا بلاء أشد في مواطنهم الأولى وبلغوا مئات الألوف ولكنهم لمّا يندرجوا في عهد المواطنة والمجتمع تمامًا بل ألفوا حال السودان في تأزم أمني ومعاشي بالغ الحرج.



الإسلاميون والثورات العربية

تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة

الطبعة: 11 - 12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس

وإذ لمّا ينتظم المجتمع كله في قومية وثيقة ولم تصلح إدارة حكمه في طهارة وفعالية وانتظام فإن مستوى الحكم السياسي الأعلى بلغ أسوأ أحواله، لا يلتزم انضباطاً بدستور ولا التزاماً بقانون إداري أو حساب مالي ولا تدور فيه شورى ولا ينظمه نسق، ولا يتجاوب الولاة للسلطة مع رعيتهم تناصلاً حراً واستجابة صادقة للوفاق بل يحيط بهم ولاء النفاق مثل النظم الحاكمة في البلاد العربية التي انفضحت في ربيع ثوراتها وانقضت ولاءات أحزاب النفاق، والحكومة تسود فيها روح متعسكرة متجبرة إلا أن تراضى الراغبين بمواقع السلطة والمكاتب والمغامم. ولا يأبه السلطان كثيراً بما يصيب عامة الناس في الصحة العامة أو الجهل أو سوء المعاش شريطة ألا يعبروا عن ذلك غضباً صريحاً أو ضغطاً خطيراً أو حملات تظاهر فإنما الحماية للسلطات هي الوقاية بالقوة الكابتة ولو بلغت فتوحشت في فعلها، بالدعاية بكلمات تتخذ أحياناً مكرراً يغر أهل الإسلام الضالين عن حقه بمثل الفتاوى بحرمة الخروج على الحاكم، ودعوة الفتنة بمحاولات خلعة، وجريرة البغي والفساد في الأرض بأيما حركة مناوئة له وشرعية عقوبتها الباطشة من فعل يد السلطان.

حكم السودان بين البسط اللامركزي والاحتكار المنقبض

حيثما تباينت البنية الاجتماعية لوطن أو اتسعت أرجاء أرضه فإن في سنة الرسول صَلَّى الله عليه وسلم في المدينة ما يدعو لبسط السلطان بتوزيع وظائف الحكم بين ما يعني خصوصاً كل إقليم أو ولاية وما يحيط بها جميعاً بينها أو إزاء الجيرة الخارجية والعالم. وفي تجارب الدول التي تقدّم ذكرها عبرة أن الحكم لمثل تلك الأوطان ينبغي ألا يحتكر كل السلطان، ولا يركّز موارد المال العام بل يجعله أوزاعاً تتوازن بها وتتعاقد وتتكامل كل الأقاليم في إطار قومي يجمع المنافع المتبادلة، ويحشد الجهود المتنافسة، ويعبئ روح الوحدة القومية، ويعمّر النهضة الجامعة بالنهج المتسامح المتعاون المتألف.

وقد سبق القول بأن ميزان الحكم الاتحادي الفيدرالي قد أصبح بالتدرج نصّاً في دستور السودان. ولو صدق ذلك لكان خيراً للسودان في تناصر أقاليمه يُسهم كلُّ بما لديه. ولكن غلب الطغيان بهواه المحتكر علي ذلك النص الدستوري وأصبحت رسوم النظام الاتحادي ومجالسه ودواوينه تُنصب مغامم لكثير من الطامعين ولكن المال العام كله مورده ومصرفه في مركز واحد، والسلطة كلها متى تنزلت من جبار الوطن وعصبته تنفذ آثارها لا يحدها شيء حتى في أدنى شؤون الناس المحلية. وذلك استثارة الأقاليم التي شدّ عليها وقع الظلم باختلال ميزان العدالة، وسبق من في الجنوب لأنه الأبعد نسباً وثقافة وجهة من الغالبيين فثار وحارب حتى استعان بعاطفة الأفارقة حوله وكيد الغربيين وكتب لنفسه خيار تقرير المصير واتخذ من بعد فانفصل إلى جيرة متوترة العلاقات. والآن تستعر الأزمات أيضاً في جنوب السودان المتبقي.

والحركة الإسلامية كانت قد مدت نشر دعوتها وبساط عضويتها حتى بلغت كل هذه الأقاليم فظلت قيادتها المتبرأة من الجبروت المحتكر للحكم تُعارضه وتدفع عن حق أولئك المظلومين فيما يليهم. وحمل عليها لذلك النظام الحاكم سجنًا متطاولاً وإلغاءً لشرعية حزبها السياسي ولصحيفتها. وكانت هي تتعظ بالقوى السياسية التقليدية قبلها التي فرطت في



الإسلاميون والثورات العربية

تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة

الطبعة: 11 - 12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس

تمثيل وحدة السودان فما بسطت عضويتها وفروعها عبر كل أقاليمه وما مثلت في قيادتها كل أبناء جهات الوطن، لذلك فعلت هي في تأسيس قاعدة الوحدة الاجتماعية ما يصدق كلمتها الداعية لوحدة السودان السياسية، وما تزال إلى الآن تحفظ بقية من روح الوصل والوحدة التي ضيّعت وتأمل وتسعى راجعة للعودة إلى المزوجة بعد الطلاق للجنوب، ولصد النزاع الذي يتهدد باقي الوطن بتمزق لاحق. ولكن السلطان العسكري يؤثر رهبة السلاح وفعل القتال والأخذ بالقوة لحفظ الوحدة في السودان، وهو بذلك يسيء سمعة الإسلام إذ ينسبه العالم لمثال منه ويصبح ذلك المثال السيء حجة لمن يريدون الكيد للإسلام والطمع في وقع جبروته السياسي في السلطان.

تجربة الحركة الإسلامية وسلطانها في علاقات العالم

طبيعة الحركة الإسلامية أنها بنشأتها وبطبيعة إيمانها وتزلفها إلى الله المحيط بالأرض والناس كافة تنفتح بهدي الدين نحو العالم كله منذ قيامها صغيرة محصورة في وطنها، كما اهتمت زمرة المسلمين الأولى بحادثة الروم مغلوبين في أدنى الأرض جوارها واستبشرت من الوحي بأنهم من بعد سيغلبون بنصر الله لتفرح هي يومئذ فجادلت المشركين وراهنهم في ذلك لأنهم كانوا هم أقرب إلى الفرس. والحركة لأول وعيها تغذت من العالم الإسلامي بالأدب والكتاب المعاصر الوارد بغالبه إليها من منشورات الحركة الإسلامية بمصر ومن نتاج كتابها، وبعضه صدر من الشمال الإفريقي غرباً ومن الشرق العربي بكل أبعاده ومن الهند وباكستان والجماعة الإسلامية فيها، فضلاً عن الصادرات من أقلام إسلامية معاصرة في بلاد آسيا وأوروبا. ذلك علاوة على كتب التراث الإسلامي مرجع اطلاعاتها وتدبرها لأصول هدي الإسلام. والحركة كذلك في وسائل دفعها ونظم بنائها كانت موصولة تعتبر بمثال الحركات الإسلامية في آسيا وإفريقيا وأوروبا. وكانت لها وسائل تزاور وتلاق مع تلك الحركات لاسيما الإخوان المسلمون والجماعة الإسلامية. والوطن الذي وُلدت فيه الحركة هو بطبيعته وتاريخ قيامه وحدوده مختلط لشعوب من عالم العرب وإفريقيا، وهو الأكبر مساحة في إفريقيا تجاوره تسعة أقطار بلا فاصل من جبال ولا بحار بل تمتد بينه وبينها ذات الشعوب بوجه ونسب ولسان واحد، وفي باطنه شعوب هاجرت إليه قديماً وحديثاً من بلاد العرب وبلاد إفريقيا شرقاً وغرباً وغمرت أصوله الشعبية الأولى. والسلطان الناشئ في أقاليمه كان يتفاعل مع الجيران ثم جاء السلطان الذي غزاه من مصر وأكد فيه معها وصلاً طبيعياً بالنيل وجدد وصلاً تاريخياً سياسياً وثقافياً منذ القدم.

ولذلك فالحركة الإسلامية لم تكن منحصرة ولا مُستغنية بإطارها الوطني بل كانت تراقب مد الإسلام وحركته في كل العالم وتُنشئ أحياناً حركات إسلامية في ما حولها، وتدفع عن حركة منها قريبة أو بعيدة عنها إن أُصيبت ببلاء وذلك بنشر خبرها والتظاهر تناصراً معها. وعم ذلك الوصال العالم المسلم بسواده الأعظم والعالم الذي فيه أقلية مسلمة، وكان أكثر ذلك التفاعل مع الإخوان المسلمين وبعضه مع الإسلاميين في تونس والمغرب وليبيا وسوريا والأردن والعراق واليمن ودول في آسيا وأوروبا وفي غربي إفريقيا وشرقيها ووسطها وجنوبها. وكانت تجمع لقاءات التنظيم العربي الجامع للإخوان المسلمين مراقبة منسقة لا عضواً، وظلت لها علاقات ثنائية مع كثيرين من الإسلاميين العرب. وقد اقترحت على الحركات جميعاً أن يجمعها نظام انتماء دوري تُتبادل فيه الرؤي وتُقارن التجارب ويُتناصر فيه بمواقف منسقة، ولم يفلح المشروع. فلما تمكنت في السلطان جمعت لأكثر من دورة مؤتمراً شعبياً إسلامياً غلب



الإسلاميون والثورات العربية

تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة

الطبعة: 11 - 12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس

فيه العرب لأول عهده لكنه اتسع عالمياً وقام منظومة عالمية امتدت مناسطه لمساح عالمية في اليمن وفي العراق وإيران بينهما وفي الجزائر معارضة وسلطة، وكان يتداعى فيه مسلمون من كل قارات العالم جنوبه وشماله ويُدعى مسيحيون عرب ونصاري ذوو مراتب في الكنيسة وآخرون لهم توجهات قومية وبعثية عربية وممثلون للحكم والمعارضة في أغلب البلاد وإعلاميون كثر. وذلك أثار الغرب حذراً واشتباهاً بأنه يدفع حركة الإسلام التي تقاوم نفوذه وأهاج حكاماً مسلمين، فتألف أولئك في حملة على حكومة السودان فأبطلت شرعيته وانتّماره فيها وكانت عليه قاضية. وهيات الحركة لقاء فيه كبير رجاء إذ جمع منظمة فتح وحماس أياماً وانعقد بينهما عقد أبطله بعد ذلك انكشاف تسوية بين فتح وإسرائيل في أوسلو.

والحركة الإسلامية كانت موصولة بحركات كانت ناهضة واثرة في بلاد إفريقية مجاورة وبعيدة، وبلغ بعضها الحكم وتواصلت مع تلك الحركة علاقاتها. وقد مدت الحركة أيضاً مداً تنظيمياً وثقافياً مع بلاد شتى في أوربا وآسيا وإفريقيا، وقبل أن تبلغ هي السلطان هيأت لعلاقات السودان المرجوة بزيارات باسم الجبهة الإسلامية القومية للصين وماليزيا والسعودية ومصر وأوغندا وكينيا وغيرها، ووثقت علاقات بأعلام في تلك البلاد جعلت من بعد مهاداً للعلاقات الرسمية والدبلوماسية.

والحركة الإسلامية ظلت موصولة بالبلاد العربية الآسيوية والإفريقية، أحياناً لأداء مهمات علمية في بعضها وأحياناً لزيارات رسمية لها. والحركة لا تحصرها طائفية شيعية وسنية في إيران واليمن وباكستان ولبنان، ولا تحصرها عصبية قومية عربية فهي باللون واللسان تربط الآسيوي بالعربي بالإفريقي. وما كانت تستنكف عن علاقات مباشرة وزيارات رسمية في بلاد أوربية كألمانيا وأسبانيا بأثارها الإسلامية بأعلام في أوربا وإيطاليا وزيارة وحوار للفاثيكان، وظلت موصولة بإعلام العالم عبر كل وسائله، وأميركا كذلك توالى إليها زيارات واسعة المدى. والحركة كانت موصولة بقيادات حركات إسلامية مجاهدة في أفغانستان وسعت بينها المساعي المتواترة لئلا يشند بينها التنارع وليستقيم أمرها في الوحدة ورشد الحكم وإسلامه. وقد حاولت قبل استقلالها أيضاً أن تدبر بينها وبين الاتحاد السوفيتي تسالماً يخرج به السوفيت آمنين ولكن تعطل ذلك إذ انهار الاتحاد السوفيتي قبل فتح كابل. وفي باكستان نشطت عناصر من الحركة باتصالات وثيقة بزعامتها وقواتها الإسلامية السياسية وبجامعاتها، مثل ماليزيا (ماليزيا مذكورة في الفقرة التالية). وفي الخليج العربي كان لواحد من عناصر الحركة مهمة امتدت حيناً في الإعداد لدستور لها قبل الاستقلال وكانت له من بعد زيارات في الخليج لم تنقطع.

وحيثما ظهرت هوية السلطان الإسلامية أخذ السودان يشتهر بين من أحب تلك الظاهرة ومن كرهها. وقد امتدت له علاقات دبلوماسية متجددة بماليزيا وإندونيسيا وتوثقت جداً مع الصين لأن الجبهة الإسلامية القومية كانت قد مهدت له -كما ذكر قبلاً (لم يُذكر شيء قبل ذلك)- بزيارة وفدية كثيفة رسمية ممتدة للصين ردت عليها الصين بزيارة قيادات شيوعية رحبت بها الحركة وجاوبتها بوفد تجاري لعمران العلاقات الصين بالسودان وإفريقيا والخليج العربي إذ كانت الصين تنهياً للانفتاح التجاري العالمي. ووجد السودان نعم المتعامل في الصين مندوداً من الديون والعطاء وأعمالاً في البترول والجسور والطرق.



مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES
studies.aljazeera.net

الإسلاميون والثورات العربية

تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة

الدوحة، 11 - 12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس

وكانت دولة السودان تشرب لبروزها في العالم عزيزة ذات رسالة ودافع تعاون واتصال اقتصادي وثقافي وسياسي. ولكن تعبأت عليها الدول الأوروبية لأنها استضافت مهاجري الإسلاميين وُعدت بذلك مؤثلاً للإرهاب وأصابته أميركا بقذائف الدمار والترهيب وحرضت عليها الجوار عربيّه وإفريقيّه وأنذرتها من إسلاميتها الأصولية، وأثارت فيها الأزمات مع أطرافها الجنوبية والغربية والشرقية. واشتدت غيرة الجيروت العسكري وتجريحها إزاء ما كان وراءه من قوة الكلمة للحركة الإسلامية وشهرة وقعها عالمياً، فسعى ذلك النظام أن يصد عن صدى هيبته وطلاقة تصرفه أصوات التصريحات الإسلامية ورؤية الوجوه الإسلامية المشهورة والتي يراها تنافسه وزناً في السودان وخارجه، وازدوجت تلك الغيرة الحريصة على صرف المنافس لها بضغوط جاءت من الغرب والجزيران عربياً وعجماً أن يحمل حملة قاضية على أعلام تلك الحركة الإسلامية. ولكنه من بعد ذلك ما تفرّد عزيزاً بل نلّ وأصبح يُستدعى من كل جار يهّم بأن يسوي له أزمته الداخلية: كينيا في شأن الجنوب، ونيجيريا في شأن دارفور، وأريتريا في شأن الشرق، ومصر في شأن المعارضة التقليدية، وتوالت عليه حملات النصح والضغط والمحاسبة والمعاقبة الدولية على مبادرة من بعض رجاله لاغتيال الرئيس المصري. واليوم أصبح السودان الرسمي مستضعفاً لدى العرب والأفارقة مطلوباً رئيسه لمحاكمة جنائية عالمية على جرائم أوقعها على رعيته. والآن تجري مفاوضات له في إثيوبيا مع الجار الجنوبي الذي توترت معه العلاقات في شأن الحدود، وحبسه للبتترول عن الشمال، وعلاقات الجنسية والإقامة والتجارة معه بل مفاوضات مع فرع لحركة الجنوب الشعبية بقي في الشمال ولكن طُرد قبلاً، وتوفي رئيس إثيوبيا الذي كان يتعاطف مع الشمال السوداني الذي آواه لاجئاً من قبل هو ورفيقه الرئيس الأريتري إذ كانت الحركة الإسلامية لعهد طويل من قبل ترعاها قبل أن يتمكن في السلطة وكانت تمدّها مما حقق لهما النصر والتمكين.

هكذا حوَصر سلطان السودان وقد اجتهد هو في حصر الحركة الإسلامية التي أقامته قبلاً وأحالت نحوه والسودان عاطفة وِدايادي من المسلمين في العالم، وواردات عون من الصين وبلادٍ أخرى، ومدّاً وعوداً طوعياً للاستثمار وصناعة تسلح فيه، وكانت تلك العاقبة السالبة هي حظ السودان حاضراً في سياق العالم ومنظّماته وقواه ووسائل إعلامه التي لا تشير إليه إلا نكراً.

فتن السلطان للحركة الإسلامية

ما تذكرت الحركة عندما فارقت مدى فتنته، كأنها غفلت عن عظات تاريخ الحركات غير الإسلامية في بلاد من العالم حين تسلط بعضها في الحكم، وعن بني إسرائيل إذ فضّلوا على الناس بهداية رسالتهم وأخرجوا من حال الذلّ والعذاب في مصر ليُستخلفوا في الأرض المباركة، ولكنهم لما تمتعوا بجزرة السلطة أفسدوا في الأرض مرتين وعلوا علواً كبيراً، وجاءت قصتهم القرآنية عظة للمسلمين منذ أول عهدهم قبل أن يُستخلفوا هم في تلك الأرض ذاتها ويقع منهم وعليهم ما وقع لبني إسرائيل. والحركة الإسلامية في السودان كانت قد سبقت سائر أخواتها متمكنة في السلطان إلا حال الثورة الإسلامية في إيران التي قامت موسومةً بنهجها الطائفي الذي انطبع به الشيعة بعد استضعاف وذل فأصبح الولاء للفقير الإمام فيهم هو الحق المشروع في سلطان الإسلام. ولذلك كانت تجربة الحركة الأولى هي ساحة الاجتهاد والعمل بلا تجريب في الحكم وأصبحت بما أصابها من خطأ وضر هي العظة والعبرة للذين لم يلحقوا بها في مرحلة



الإسلاميون والثورات العربية

تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة

العدد: 11 - 12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس

السلطان من الإسلاميين إلا بعد حين. وكانت فتنة المسلمين الأولى في صدر تاريخهم بعد وفاة النبي لا تُذكر لهم في تاريخهم إلا لمأماً ولا تُستتبط من بلائها العظة لخالف المسلمين. وكذلك فتن سلطان العسكر في سائر دار الإسلام من بعد مما جرهم إلى بوار وانحطاط بالغ كأنها لا تذكر وتستبان عظاتها.

فالحركة قاربت السلطان متوكلة على الله لاطمئنانها بمن فيها من إخوة توثقت مودتهم وتركت تقواهم وتطهرت أمانتهم وتهيأت ثقافتهم. ولكن مناهج التزكية فيها لم تكن عن وعي بفتنة السلطان القادم والتهيؤ للمصابرة عليها وتجاوزها وتدابير الاحتياط اللازمة لاتقائها. فما مضت سنوات حتى بدأ سوء طبع إمرة العسكر الذي أقامه الإسلاميون على ظهورهم وسوء العاقبة عليهم هم؛ فالعسكر فتنتمهم أهواء التسلط والاستكبار لأنهم عهدوا في نهج القيادة العسكرية روح الجنوح للربط والضبط المتعالي المفرط في كل شيء، وتنزيل الأمر اللازم دون مجال للشورى والنصيحة من سائر الصحب، واتخاذ القرار تلقاء وفجاءة دون بيان أو إعلان لمهاد التفكير في حيثيات القرار.

وما تذكر أبناء الحركة ماذا فعل العسكر بتجارب سلطان المسلمين قديماً وحديثاً في كل بلاد الإسلام التي أسلمت أمرها لهم رجاء تثبيت القوة والأمن فما لقيت منهم إلا القهر والاستبداد بغير التزام بهدى الدين أو تفقه لمقتضياته وبغير رحمة لمن حدثته نفسه أن يخالف ويناصح عن فقه وحكمه وحسن نية لابتغاء الحق. وتاريخ سلطان المسلمين الذي أفسده العسكر يطرح أمثلة متوافرة في بلاد العرب والترك والعجم قديماً وحديثاً. وتاريخ العالم يشهد بأمثلة متوافرة لاستبداد العسكر وصرفهم لكل قوة تناصح أو تعارض ولو بفكر الحركة التي قاموا هم بدفع منها لأن شيطان الفرعنة أغراهم بأن قرار السلطة النافذ هو مهمهم الأكبر، وقرارهم حجته قوة وقعه ولو بالسلاح لا بموافقة مقاصد الدين في الدنيا ولا في الآخرة. وجرى في السودان ما جرى من الخلاف بين هذه الحركة وأمر عسكرها في كل شعاب الأمر العام وسياسات الحكم. واشتدت الوطأة على المجتمع كبتاً لحرياته وحبساً لطاقتة ليرتهن للنظام المفروض. وانقلب ذلك الاستبداد خاصة على الحركة نفسها ليعوق سيرتها ويُسكت صوتها ويحجر تقدمها. وتحت وطأة القهر فشنت ظاهرة النفاق من كثير من أبنائها مسابرة لباطل السلطان تعلقاً بالحرص على حفظ مذهبه الأصل، وتمنياً أن ينصلح أمره ولكن في الحق غلبت الرهبة من فعالة التي لا ترحم والطمع في عطاءاته ومغانمه المغرية. فتنشكلت مدود من الحركة ومن سائر منافقة جماهير الشعب تؤيد وتحمد النظام وتدعي الولاء له ليكونوا مثل أحزاب الطغاة التي تمتد وتتكاثر بغير صدق فإذا سقط الطاغى تساقط الولاء وتفرق الحزب وذُهب كل من فيه مرتداً إلى قديم ولأنه أو منعزلاً في الحياة الخاصة. وذلك أمس واليوم قد عرفه السودان وعرفته البلاد العربية وغيرها لو يتعظ به الناس غداً.

وإذا توافر المال العام حول الطغاة وعمالهم دون رقيب أو حسيب -لأن الحريات مكبوتة وضوابط المال العام منحللة متفلتة- فشا الفساد في المال العام وفاض حتى أصبح الفاسدون وقد نسوا الله رقيباً حسيباً لا يباليون بالرأى العام بل يجاهرون بأثار الكسب الحرام، ويستهوون الآخرين إلى مجال فسادهم المعمور المسنود بالسلطة المستغلة ولقوا كثيراً من الأتباع خاصة في دواوين السلطة أو ساحات المال الخاصة.

ولما رأى المعتصمون بالحق من الحركة أن أداة الحكم الذي أقامته قد ضلّت عن الهدى فأصبحت لا تسترشد بشورى ولا نصح ولا تتحرى فقها وتبيناً للحق، وأصبحت تخون ولا تفي بالعهود المكتوبة في الدستور والقانون، ولا تشبع شهوات الحكم فيها بل تستمسك بمواقع السلطة وتتمنى فيها الخلود، وتدير صور الانتخابات بزور جرى بين حتى لا يدخل عليها في السلطان آخر، وتآكل أموال الناس بالباطل ظاهراً وتبتطش بالناس لتكبت حرياتهم اعتقالاً وتعذيباً وقتلاً لمن خرج على إطار أمر المستبد الحاكم. ولما رأى أولئك المصابرون اعتصاماً بالحق أن مثال دولة الإسلام قد شأه



الإسلاميون والثورات العربية

تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة

العدد: 11 - 12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس

وأصبح مثل سابق الحكم الكنسي في الغرب والخلافي الفاسد في تاريخ المسلمين، ولما رأوا أن بقاءهم مع أولئك الطغاة الفاسدين الضالين إنما يعرّضهم للحساب الأشد كأنهم قاموا شهودًا للباطل وجنودًا له. لما رأوا ذلك عزموا على المفاصلة والفرقان بين الحق والباطل. وكسنة المستكبرين في تاريخ الإسلام والبشرية كان أولئك المفاصلون عرضة لأشد المحن وقعا لأن الطغاة يخشون من أن تنفض دعواهم الكاذبة بالشرعية الدينية من أصوات عهد الناس فيها كلمة الحق من قبل والصبر على السجون والحرمان عبر سيرة الحركة الإسلامية الصاعدة في سياق الابتلاءات والظروف العسيرة في سبيل قيام الحق في سلطان السودان. واجتهد إسلاميون من البلاد العربية وغيرهم ليدركوا أمر السودان قبل أن يخيب الرجاء الأول فيه، ولكن عجزوا عن المصالحة على حق سواء وكلمة نصح صادق توفّق بين من قابلوهم في حيطان السجون ومن تشرفوا بلقائهم في دواوين السلطان العليا.

والحمد لله أن قد تمايز الحق والباطل في السودان وأن تطهرت سمعة الإسلام من مثال منسوب إليه هو بالغ الطغيان والاستبداد والخيانة للعهود والفساد، الحمد لله ألا تسوء حال كل الحركات الإسلامية التي تتقدم مقارنة للسلطان إذ تُظن بها الظنون ويُقاس المصير معها تحت سلطاتها يمثل ما وقع في السودان لعامة جمهور الرعية كبتًا وشقاء، ألا تُكذّب دعواها بفصائل النظام السلطاني الإسلامي الذي تبشّر به حرية للجميع وصالحًا في الدنيا والآخرة.

وأصبح خطّ الحركة الإسلامية في السودان أن تكون أشد المعارضين حملة على السلطان الذي بنت هي أركانها قديمًا فخان أمانته وغدر بها، لأنها الأحرص على إبطال دعايته التي تنتسب لشعارات الإسلام، واندرجت هي مع المعارضين في جبهة تعززت حملتها على النظام حتى أصبحت في يأس من رده للحق فمضت داعية جهازًا لإسقاطه. والحركة الآن وهي محصورة بتدابير الطغيان أصبحت أرشد من ذي قبل وأوعى بفتن السلطة، وأحرص على التزكي لاجتياز بلانها لو كتب الله لها عودًا إليها ولو بنصيب مؤتلف. أصبحت الحركة أوسع فقهاً بأحكام سلطان الإسلام، وتزكيًا بأخلاقه اللازمة لرشده، والاحتياط من فتنة. وأصبحت تعترف بخطأ اللجوء للعسكر لحمل المجتمع على حكم الإسلام كرهاً؛ فذلك ارتد عليها بسوء السمعة وسوء الحال، وأصبحت تناصح اللاحقين بها على طريق النهضة مقارنة نحو السلطان بأن يعتبروا بما بلغت من صواب في التجربة ويتعظوا بما ورطت فيه من خطايا جرّت عليها الوبال.

وهي اليوم تخطط لمستقبل أيامها في السودان بل في سياق الفتح للحرية ولحكم الشورى بظواهر الربيع العربي وتطورات حادثة مباشرة في بلاد أخرى لاسيما أنها كانت -كما سبق القول- تتجدد وجهًا وكيفًا مع تطور مراحل سيرتها ومع تغير ظروف التاريخ، وكانت تخطط لأفق أبعد نحو الآخرة في مستقبل الدنيا وبعدها. وهي اليوم -وقد كانت قبلاً موصولة بالعالم وبهضة الدين وقومته الممتدة- تدرك أن العالم العربي ومن وراءه الإسلامي وما حوله من عالم الإنسان أصبح يتقارب ويتواصل ويتفاعل بكل حوادثه وحركته وبهموم مصائره خيرها وشرها، فأصبحت الحركة الإسلامية -كما ينبغي لها بهداية دينها وأقدار ربها- لا تقتصر على السودان بل تنتسج في الأرض كأنها هي في ساحة واحدة مع سائر الإسلاميين في مدّ واعد لا يضارها فيه الآن دفع ذو خطر بالغ من ديانات الأرض أو مذاهبها ولا تحصرها قوى تحاول بسط دعايتها ومدّ يدها لتحيط بالعالم؛ فعهد فيضان الطغيان في الأرض يبشر بتلاشي معهوداته وواقعاته الماضية إلا الذكريات والعبير. ولكن لا يعلم الغيب البشرُ مهما يستقرئون قادم الأمور، ولا يدري أحد هل تُفلح الحركات الإسلامية التي أصبحت اليوم مستخلفة في السلطان ظاهرة واضطرّ جبابرة النفوذ العالمي أن يهادنوها ويلابنوا الخطاب والحوار معها! ومهما يكن فلا بد من المجاهدة لفتن الدنيا وابتلاءات السلطان والتوكل على



مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES
studies.aljazeera.net

الإسلاميون والثورات العربية

تحديات الانتقال الديمقراطي وإعادة بناء الدولة

الدوحة، 11-12 سبتمبر / أيلول 2012 | الشيراتون - قاعة المجلس

الله حتى تأتي بشائر القدر الأجل في الدنيا فتحًا للإسلام واقعًا ممتدًا أوسع من عالمه القديم جامعًا أكثر من خلف المسلمين السابقين جالبًا لخيرهم ولخير بني الإنسان في الأرض، ولأهل اليقين في الآخرة فلاحًا تصدق به بشارة الله إن شاء الله.

انتهى